أسلوب المعرى

ومنهاجه

سيداتي وسادتي :

باسم تراثنا الادبي وسلسلة الفكر العربي نجتمع الآن في ضوء هذا المهرجان ومن حول مناوره وذرى منابره لنحيي ذكرى (أبي العلاء) [أحمد ابن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري] رهن المحبسين . ولنكرم في ذكراه ليس شخصاً زائلاً بل عبقرية فذة وفكرة باقية ونفحة عطرة من نفحات الادب العربي تملّت بها العروبية والانسانية في القرنين الرابع والخامس للهجرة وما زالت تطوي مراحل الزمن لتعيش بيننا بعد ألف سنة مما نعد ولتعبر عن حاجاتنا الادبية تعبيرها عن حاجات عصرها وزمانها . وإذا كانت الشخصية الادبية هي التي توفق في أي عصر من العصور في التعبير عن الحاجات الادبية لذلك العصر أو لجماعة من جماعاته أو فئة من فئاته وكلما ارتفعت في ميزان القيم اتسعت آفاقها وعظم شمولها وجاوزت حدود الحاضر الى المستقبل فان أبا العلاء هو من طراز تلك الشخصيات الادبية التي أوفت على الزمن وشغلته ماضياً وحاضراً ومستقبلاً . ذلك لان أبا العلاء في غالب ما اخرج للناس لم يكن إلا ومضة حق وخير وتعبيراً حراً بليغاً عن الكون والحياة وصدى قويا شجيا لخلجات القلب وأمواج النفس .

ومهما اختلف النقاد في هذه الشخصية الادبية النادرة واستبقوا النظر في منهاج أبي العلاء وأسلوبه واكتناه مناحيه فزعموا له الوضوح او الابهام والشك أو اليقين والقوة أو الضعف او اعتبروا لغته وألغازه وجناسه ومجازه دليل تفوق وتمكن او ضربا من ضروب العبث فأن هذا ليس بضائره في شيء بل ان هذا كله لدليل اهتمام بذي خطر لا بد وأن يختلف إليه النظر اختلاف النقاد في مذاهبهم واذواقهم وعقائدهم وثقافاتهم .

أما الذي لا ريب فيه وعليه المعول واليه ميل جمهرة النقاد فهو ان أبا العلاء شخصية أدبية فذة طالعت الآداب العربية بأسلوب جديد له خطره وأثره في الشعر والنثر تفنن فيه أبو العلاء لفظاً ومعنى شكلاً وأساساً وتأثر به الادب العربي والآداب الاجنبية الى حد بعيد . ونحن اذا صحبنا أبا العلاء واستمعنا إليه في رفق وأناة واستقصينا آثاره وفنونه وشروحه ومتونه استطعنا أن نرد المنهاج الذي اعتمده وركّز عليه اسلوبه سواء أفي الشعر أم النثر الى الاصول الآتيه :

(أ) **في الشعر**

١ — الاخذ بمباديء المدرسة القديمة (مدرسة الخليل بن أحمد) في العروض والقافية مع استقصاء نواقص هذه المدرسة واكمالها وقد كان من جراء ذلك ان استحدث القافية المقيدة المجردة أثبتها في ديوانه (جامع الاوزان) على ما روى (ياقوت) قال : (وذلك مفقود في الشعر القديم والمحدث يشبه المقصور) .

٢ — اخضاع حروف المعجم بكاملها للقافية الشعرية والنظم على منوال ما فُقد أو ندر او أهمل من ذلك عند المتقدمين وهذا بعض ما قصد إليه في (اللزوميات) . وعمل كهذا كان يعتبر من باب الاستقراء الادبي والجهد اللغوي الفني ورياضة الفكر بل حتى الخليل بن أحمد وهو أدنى إلى عصر البساطة والطبع (تظرف) فجمع حروف المعجم في بيت من الشعر .

٣ — لزوم مالا يلزم على مثال ما شرح وأوضح في مقدمة (اللزوميات) أيضاً وهو أن يلزم مع كل روي حرفاً ليس بلازم تقوية للقافية في السمع كما في قوله :

وإذا رجعت إلى الحقائق لم يكن في العالم البشري إلا بائس
والموت باز والنفوس حمائم وهزبر عريس ونحن فرائس

فقد التزم في هذين البيتين الهمزة المكسورة مع السين كما هو ظاهر من كلتي (بائس) و (فرائس) وكان بامكانه أن يكتفي بالسين لو لم يجد في

ما التزم ايقاعاً أجمل ولفظاً أنبل . ذلك هو منحاه في (لزوم مالا يلزم) وهو شكل من أشكال النظم النادر في شعر المتقدمين وسعه وأضاف اليه وتفنن فيه واختصه باغراض شعرية جديدة . وأنشأ عليه أبنية أوراق ديوان (اللزوميات) وأكثر ما ورد منظوما في رسالة (ملقى السبيل) .

٤ — نبذه أسلوب القصيدة العربية التقليدي سواء أبالنسبة لاغراضها أم تنسيقها وذلك أن الشاعر العربي قد ظل محافظا على أساليب العصر الجاهلي وقوالبه الشعرية يستلهم من حياة البداة ومنازعهم وصور البادية وتقاليدها ما يباين طبع الحضارة واحساسها وصورها وحاجاتها ومن أعرض عن ذلك من الشعراء المحدثين ظل فرديا في المجتمع العربي الجديد وفي معزل عن الذاتية القومية إلى حد بعيد الى أن جاء أبو العلاء بأسلوبه متخذاً من صدق الكلمة والنظر الحر والحياة العامة والمثل العليا دليله في الشعر .

(ب) **في النثر**

١ — استحداثه قوالب جديدة للنثر الفني تجمع بين الروح الشعري والفكر التعليمي الفلسفي مضيفا إلى بعضها (الغاية) أو القافية إلى السجع والتوازن على نمط خاص هو أدنى إلى ما نسميه (الشعر المنثور) في اصطلاح أيامنا ليكون التعبير أحسن جرساً وأوقع في السمع والنفس . وهذا هو أسلوبه في (الفصول والغايات) و (والأيك والغصون) محمولا على مواعظ وتأملات وأحاديث وآراء والتفاتات ذهنية وروحية إلى حقائق أو مظاهر كونية وإنسانية في صيغ متينة حافلة بفوائد وطرائف أدبية ولغوية تستسر غالباً في الوشي الفني والاغراب والتكلف .

أما في (ملقى السبيل) وهو نثر وشعر من نوع المواعظ والتذكير بالنهاية فيجيء بالقطعة النثرية لا تجاوز سطراً أو أسطاراً على حرف واحد أو عدة حروف من السجع ثم يكرر معناها شعراً يبتدئ بهذا من الهمزة إلى أن يستوفي حروف المعجم وهو نمط آخر يعتمد حل المعنى وعقده ووحي الالفاظ والاوزان معاً . وهو أدنى إلى أسلوب الوعظ الخطابي القديم عند العرب .

٢ — اصطناع الاسلوب القصصي التعليمي الفكه محمولا على الخيال المبدع والسخرية اللاذعة والاستقصاء الادبي الجامع وهو أسلوبه في رسالة الغفران المشهورة وقد كاد ينفرد به .

والمعري لم يكن عابثاً أو متفكهاً في اعتماد هذه الاصول او ابتكار تلك القوالب الادبية التي أودعها حشاشة نفسه وعصارة فكره مهما اختلف النقاد في تقويمها بل كان يريد أن يبلور ما لم يكن مبلوراً من أشكال الصيغ العربية . وأن يتمم نقصا أو يسد ثلمة في دواوين الشعراء المتقدمين والمحدثين وأن يأخذ بالاقوى من القافية مصطفيا موسيقى اللفظ ورادا قوة الكلمة في بناء القوافي إلى لزوم ما لا يلزم وإلى توافق الكلمات في السنخ (أي أصل بناء الكلمة) لان هذا هو الامتن والاحسن في رأيه ولان العرب كما يقول : كانت تختار أشرف الكلم في السمع متأثراً في الوقت نفسه بما كان شائعا في عصره والعصور التي تقدمته من افتنان بالصنعة والتوشية والمحسنات اللفظية والمعنوية وبما كان للصيغة من أثر سحري يشفع بالاغراب والتكلف ذلك ما جعل أبا العلاء يأخذ بأقصى حد العبارة وهو يرى للالفاظ قوة ايحائية تنقل أكثر من معانيها وتخلق أجواء من عواطف وتصورات .

بيد أن أبا العلاء لم يقصر أسلوبه على هذا المستوى بل كان يراعي فيه مقتضى الحال فالنثر الفني المحمول على التفوق الادبي والمنهج التعليمي هو عنده غير النثر التعليمي المجرد او ما يكتب في المراسلات او يقال في الجماعات ففي الاول يؤثر الصعوبة والمتانة والتعمق اللغوي والسجع ولزوم ما لا يلزم والتفنن اللفظي والمعنوي وحشد المعرفة وفي الانواع الاخرى يتوخى مع الجزالة وتوثيق السرد بساطة التعبير وسهولته ومن كلامه في بيان ما ترك من حروف المعجم توخيا للسهولة في ما وضع من خطب منبرية عامة قوله : (تركت الجيم والحاء وما يجري مجراهما لان الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون سجيحاً سهلا) . ومن شواهد أسلوبه البسيط السهل (مقدمة اللزوميات) و (رسالة الملائكة) والمعري لا يختار الصيغة

للتعمية كما ظن بعض النقاد بل لان الصعوبة أنفس من السهولة في مذهبه الادبي وما يهمس أو يلمّح به أحيانا ليس هو من باب التعمية بل من سوانح الريب الغابر وقد تكون الاشارة أبلغ فيه من العبارة وليس أدل على وضوح أبي العلاء وصراحة طبعه وحرّية فكره حتى في الشؤون الدينية والسياسية من آرائه الجريئة وأفكاره المعلنة في تعريف الله ونفيه عنه الصفات واثباته له الزمان والمكان بالمعنى الذي عرّفهما به ومن قوله بالعلل ورسالة العقل وحرية النظر والخير للخير والمساواة العامة والمغفرة الشاملة ومن حملاته العنيفة على الطغيان والطغاة والولاة وتجار العقائد والماديء وسائر مساويء عصره ومن نقده المذاهب والشيع والمقالات جميعاً حتى ليصح أن يدعى له مذهب مستقل . ولو أن أبا العلاء كان يؤثر التعمية حقا في أسلوبه وبيانه لم يُقبِل كل مؤلف ممتاز من مؤلفاته الادبية بشرح أو تفسير لكشف مغلقاته — على ما هو ثابت في ثبت مؤلفاته — بل أن الصعوبة هي مهماز البحث والاستقراء ونزعة تعليمية عند أبي العلاء أوجبت أن يلحق بديوانه (لزوم مالايلزم) (زجر النابح) و (شرح اللزوم) و (الراحلة) و (راحة اللزوم) و (بالفصول والغايات) كتابي (السادن) و (اقليد الغايات) و (بالأيك والغصون) او (الهمزة والردف) (تفسير الهمزة والردف) . وهذا كله لان أبا العلاء لم يكتب لنفسه فحسب بل لطلابه وقرائه جميعا . بل ان النزعة التعليمية المعلمية لتلازم أسلوبه حتى في القصص الخيالي الفكه وقد يضحي الوحدة الفنية ووحدة السياق اللاذة في سبيل الاستقصاء العلمي النافع . ومن ايثاره هذه النزعة استخدامه مصطلحات وسائل العلوم والفنون الخاصة في اختراع المعاني العامة وتوسيع الطاقة اللغوية والبيانية بحذق وعمق سواء أفي الشعر أم النثر مما لم يسبق إليه .

قال في (الفصول والغايات) : [استغفرك ماحي السيئات من قول ليس باسناد . استكثر من السناد . كم أوطيء في الذنوب واضمن الحوب بالحوب . وإذا تقويت لفعل الحسنة اقويت ومتى انكفأت إلى الخير أكفأت . فاسترني ربي فعيوبي أقبح من السناد والاكفاء] .

وقال في (الأيك والغصون) : [لا تعيبن احداً بأمر فتطأ على مثل الجمر . اصبر على ما حكم ربك واياك وليت الكاذبة ولو الغرارة وعسى المخلفة ولعل الخالبة وابك على خطيئتك ولا تكونن كالرجل يبكي العداء .

ومنها :

ما ترحيم وضع وكلام ضم وجمع جر بالاضافة ونصب على الاغراء]

وقال في (لزوم مالا يلزم) :

بعدي من الناس برء من سقامهم وقربهم للحجى والدين أدواء
كالبيت أفرد لا ايطاء يدركه ولا سناد ولا في اللفظ إقواء

وأمثلة ذلك كثيرة جدا في شعره ونثره .

والمعري الحائر او الساخر او الثائر شخصية مطبوعة لا مصنوعة . بيد أنه كلما أوغل في حروف المعجم أو عالم الالفاظ والكلمات وأغرب أو تفنن في الجناس والالغاز والتوشية مستسراً في بطولة البيان والبديع واللغة اكتنفه الغموض الى أن يفسر نفسه باملائه أو تفسره المعاجم وهو في مثل هذا الايغال قد يضحي الجمال الفني بمعناه الحديث ليشبع نهمه العلمي او التعليمي ارضاء لذوق عصره . والقطعة الفنية من مثل بيانه هذا انما نستفيد منها اليوم بمقدار ما يستفيد علماء الحضارات القديمة من القطع الاثرية والنفائس المتحفية . أما عندما يرتجف قلبه بالالم وتغمر ثورته النفسية معالم الصيغة وتتكاثف عواطفه وأفكاره فينبثق عنها الالهام فاننا لنبصر فيه عندئذ أوضح وجه وآنس روح وأعمق نظر بل الشاعر الحق متصلا ليس بعصره فحسب بل بجميع العصور الانسانية .

وأبو العلاء عندما يأخذ بالسمت الفلسفي في الشعر أو باختراع المعاني العامة من المسائل والمصطلحات العلمية والفنية الخاصة لا يسخر الشعر للعلم بل العلم للشعر فهو ليس بالشاعر الفقيه أو اللغوي أو النحوي أو الفلكي بالمعنى المنتقص في الذوق الادبي بل هو الشاعر الملهم ابداً والمشرف بشعلة وجدانه وبيانه على صميم الحياة وأقصى المسالك الانسانية .

وقد يبهجنا أن نستمع إليه الآن قليلا لنكون أكثر اتصالا بروحه الشعري الواضح واسلوبه الحر :

قال من قصيدة في (لزوم ما لا يلزم) يمجد الله ويندد بما انتهى إليه مجتمع عصره من انحلال أخلاقي :

للمليك المذكرات عبيد وكذاك المؤنثات اماء
فالهلال المنيف والبدر والفر قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والنث رة والارض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ما عا بك في قول ذلك الحكماء
خلني يا أخي استغفر الا ه فلم يبق في إلا الذماء
ويقال الكرام قولا وما في العص ر إلاالشخوص والاسماء
وأحاديث خبرتها غواة وافترتها للمكسب القدماء

وقال : يحمل على الطغاة والطغيان والفوضى السياسية في عصره :

يكفيك حزنا ذهاب الصالحين معاً ونحن بعدهم في الارض قطان
ان العراق وان الشام من زمن صفران ما بهما للملك سلطان
ساس الانام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم ان بات يشرب خمراً وهو مبطان
تشابه النجر فالرومي منطقه كمنطق العرب والطائي مرطان
أما كلاب فأغنى من ثعالبهم كأن ارماحهم في الحرب أشطان
صلوا بحيث أردتم فالبلاد أذى كأنما كلها للإبل اعطان

وقال : يخاطب الدنيا الغرارة ويقوّم مصير الانسان :

يموج بحرك والاهواء غالبة لراكبيه فهل للسفن إرساء
إذا تعطفت يوماً كنت قاسية وان نظرت بعين فهي شوساء
إنس على الارض تدمي هامها إحن منها إذا دميت للوحش أنساء
فلا تغرنك شم من جبالهم وعزة في زمان الملك قعساء
نالوا قليلا من اللذات وارتحلوا برغمهم فاذا النعماء بأساء

وقال : وكأنه يرى الموت أثبت الحقائق على مافيه من سر غامض :

أما الصحاب فقد مروا وما عادوا وبيننا بلقاء الموت ميعاد
سر قديم وامر غير متضح فهل على كشفنا للحق إسعاد

سيران ضدان من روح ومن جسد هـذا هبوط وهذا فيـه إصعاد
أخـذ المنـايا سوانا وهي تاركة قبيلنـــــا عظة منهـا وايعاد
توقعوا السيل أوفى عارض وله في العين برق وفي الاسماع إرعاد

وبعدُ : أوليس في هذا الشعر أعمق وأدق ما يختلج به القلب البشري ؟ أفلا نرى فيه الشاعر الملهم وقد أبرز أفكاره وأحاسيسه في صيغ متينة متسقة من اللفظ الواضح المأنوس تدخل الآذان من غير استئذان لتحتل أعماق النفس ؟ ألم نخشع مع الشاعر لعظمة الله بديع السماوات والارض وقد أبرز الكون عبداً لله بمذكراته ومؤنثاته ؟ ألم يصور لنـا حياة عصره حتى لكأننا نراه ونعيش فيه ؟ ألم يبصرنا بالموت والحياة وقد أشهدنا النهاية سيلاً جارفاً وايعادها عارضاً تخطف الابصار بروقه وتصم الآذان رعوده ؟ ألا ان هذا لهو الشعر بأكمل معانيه وأجمل مبانيه .

أما قصائد (أبي العلاء) المشهورة كمرثيته الخـالدة (غير مجد في ملتي واعتقادي) وقصيدة (عللاني فان بيض الاماني) وأشباههما فقـد كاد يجمع أهل البصر في الشعر أنه ابتنى منها هيكل جمال فني ما زال يخشع له الخيال والفكر .

وأبو العلاء إذا لم يستطع أن يطالعنا بالمسرات والمباهج في (اللزوميات) لانها نظر حزين في نقص النواميس ورثاء حار للانسانية الضعيفة الفـانية ومعالجة جريئة لمجتمع مريض وحيرة متجهمة متهجمة فلقد طالعنا بما يروح عنا في رسالة الغفران وبرز أسلوبه القصصي التعليمي غنياً بالخيال والصور الفـكاهية محمولة على السخرية اللاذعة مما هو معروف مشهور ولا مجـال الآن لتحليله وتفصيله . والسخرية في اسلوب ابي العلاء مردها إلى النقد الضمني كأن يظاهر خرافة او صورة على المبالغة ليثير من حولها الضحك . والقهقهة التي يثيرها حول بعض الاساطير والعقائد تكون معول هدمها وآية نسخها .

ومما تفنن فيه اسلوباً وبياناً انطاقه الطير والحيوان بما ينفع الانسان

ويبهج البيان . ألّف في هذا الباب — على ما نقل الرواة ومؤرخو الآداب العربية ولم يصل إلينا — (سجع الحمائم) يتكلم فيه على ألسنة حمائم أربع و (أدب العصفورين) و (الصاهل والشاحج) و (خطب الخيل) يتكلم على ألسنتها (والقائف) على مثال (كليلة ودمنة) بل هو كما يقول الكلاعي صاحب (احكام صنعة الكلام) أكثر ورقاً وأفسح طلقاً وأكثر شمماً وعبقاً . وله مما يعد من الاشكال الادبية الخاصة كتاب (المواعظ الست) في خطاب (رجل ، اثنين ، جماعة) ، (امرأة ، امرأتين ، نسوة) . ومما تحسن الاشارة إليه تفننه في اختيار العناوين الطريفة المبتكرة لآثاره ومؤلفاته الادبية سواء أفي الشعر أم النثر وهي نزعة الادب الحديث محمولة على الذوق الفني والدقة والاناقة .

ولقد تأثر أبو العلاء في أسلوبه إلى حد كبير بما حدد لنفسه من معنى الادب وغاية الشعر إذ كان المتقدمون يرون الشعر باباً من ابواب الباطل فاذا بالمعري يخرج به عن هذا فيبتنيه على القيم أي على الحق والخير والجمال بعد أن ظل الشعر أمداً طويلا مسخراً للعابثات وأهواء الرئاسات والمدائح والاهاجي والاغراض الخاصة المحدودة .

ومما صرح به في مقدمة (اللزوميات) أنه قد رفض الشعر بمفهومه السابق إلى أسلوب جديد هو أسلوب الصادقة معتذراً عما قد يبدو من ضعف فنه الشعري بسبب هذا المنحى فيقول : (من سلك في هذا الاسلوب فقد ضعف ما ينطق به من النظام لانه يتوخى الصادقة) إلى أن يقول : (ويروى عن الاصمعي كلام معناه أن الشعر باب من أبواب الباطل فاذا أريد به غير وجهه ضعف) .

بيد أن توخي الصادقة لم يكن باعث ضعف في شعر أبي العلاء بل قوة وهذا الاسلوب الجديد بفكرته وغايته هو الذي نفحه بالخلود وأبرز منه شاعر القيم بل المفرد العلَم الذي حمل الكون والانسان على أثلة اللسان ومنطوق البيان واختار للحكمة أفقاً شعرياً تشرف منه على العالم ،

وفي الحق أن أبا العلاء في اختياره مذهب الصادقة قد جعل من الشعر

تعبيراً تاماً عن نفسه . والفن تعبير كما يقال والشاعر كلما كان أصدق تعبيراً عن نفسه كان أبلغ شعراً وأعظم أثراً . نعم . قد يجاوز المعري أحياناً حدود الروح الشعري في استمداده المبنى من الصيغ الصعبة ولكنه ليظل في استمداده المعنى من ثورته الروحية الملهمة وشعوره الاصيل مثال الشاعر الجبار .

وإذا كان قد انفصل في اسلوبه الجديد عن مذهب (الفن للفن) وهو في أصله مذهب أرسطو ثم الأصمعي إلى مذهب (الفن للفائدة) وهو في أصله مذهب أفلاطون معتبراً غاية الشعر التهذيب والحقيقة والمثل الاخلاقية العليا مجاوزاً في هذا ما أخذ به الأصمعي من الفصل بين الاخلاق والشعر فأنه في الواقع لم يأخذ بهذا السمت إلا لأن الانسانية في نظره قد تستطيع أن تستغني عن باطل الفن ولكنها لا تستطيع أن تستغني عن الاخلاق .

ونحن إذا أخذنا برأي من يذهب إلى أن (الادب نقد الحياة) ولاحظنا القوة الناقدة الزاخرة بالحيوية الذهنية والمعارف الشاملة والحس المرهف في أسلوب أبي العلاء أمكننا أن نضعه في الذروة بين عباقرة الادب وأن نحمل تفوقه الادبي على مواهبه الممتازة وثقافته الواسعة وفهمه الحياة والعالم فهماً عميقاً شاملاً أمدّ أبداً قوته المبدعة بالأضواء والظلال والجمال والجلال .

ولعلنا نختلف أحياناً مع أبي العلاء في آرائه ومقاييسه وفي تفسيره الحياة والكون والمعاني الآلهية ولكن الذي يستهوينا منه أبداً هي حرية فكره وطهارة نفسه وأن يصدر في كل ما يكتب أو يقول عن إيمان صادق وغيرة عامة وفكر رصين وشعور عميق . وفي الحق إذا كان أسلوب الكاتب أو الشاعر شديد التأثر بمزاجه وخصائصه النفسية والفكرية فأن أسلوب أبي العلاء ليس بمطبوع على هذا فحسب بل هو ذات أبي العلاء يطالعنا بصرامته ورقته وغموضه ووضوحه وقلقه واطمئنانه وبما يواكب عواصف نفسه وآهاته وواهاته من تشاؤم مكفهر ونظر حائر وتناقض أحياناً .

لا جرم أن المفاجئات الروحية في حنادس الكون والحياة ومعارج (اللانهاية) لابد وأن تهز الانسان هزاً وأن تجاوب في نفسه أمواجها ومفارقاتها .

وأنى لأبي العلاء وقد أعجزه سر الغيوب ووقف في ليل عاصف يتشوف على خضم المجهول أن لا تطالعه الحيرة أو التناقض كلما أمعن في السرى ولما يطلع الفجر:

أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا
سألتموني فأعيتني إجابتكم من ادعا أنه دار فقد كذبا
وبصير الاقوام مثلي أعمى فهلموا في حندس نتصادم

بيد أن أبا العلاء قد أفاد من الحيرة على خضم المجهول أن ازداد ايماناً بعظمة الله وصغر شأن الانسان ووجوب النظر الحر وانتهى إلى تنزيه الخالق مع التسليم لملكوته والثقة المطلقة بعدله ورحمته لان الانسان على حد تعبيره أقل في ملك الله من أن يناله غضبه أو رضاه .

قال في (لزوم ما لا يلزم) :

ليفعل الدهر ما يهم به إن ظنوني بخالقي حسنه
لا تيأس النفس من تفضله ولو أقامت في النار ألف سنه

وقال: وما أنا يائس من فضل ربي على ما كان من عمد وسهو

وقال في (الفصول والغايات) :

كن حراً وانزل حيث شئت ولو بحرة النار فان رعاية الله شاملة للأحرار .

ولقد تأثر أسلوبه بنظره هذا واعتنى بالصيغ المبتكرة والتعابير الجميلة الرصينة في مناجاة الله وتحميده وتسبيحه وتمجيده . بيد أنه من جهة أخرى قد ظل مأخوذاً بفلسفة التشاؤم لدوام ريبه في العلة الغائية وهو ما يبرح يرى اللحد يصير لحداً مراراً وقد أضحكه تزاحم الأضداد.

وفي الحق ان التشاؤم وهو طابع الريب والألم محمولاً على المزاج لذو أثر بليغ في أسلوب أبي العلاء بل هو (علامته الفارقة) لما حمله في (اللزوميات) و (الفصول والغايات) من أفكار وألوان قاتمة حتى أسرف بعض النقاد فاعتبره في لون أسلوبه هذا (سلبياً هداماً) واقتصد آخرون فزعموه إيجابياً بقدر معلوم واني لأميل الى الأخذ بالرأي الثاني بل الى القول بأن التشاؤم في ذاته

ليس هدماً للحياة بل هو لون من ألوانها ولحن من ألحانها بل ميزان من موازينها ومعرض للكثير من صورها ورسومها . نعم . وأي ضير في أن يطالعنا ابو العلاء بالألوان القاتمة من الحياة البشرية محمولاً على مزاجه وحيرته وعوامل بيئته وخصائصه النفسية والفكرية .

أوليست الحياة دمعاً وابتساماً وعرفاً ونكراً وخيراً وشراً وقبحاً وجمالاً .

أوليست غاية الفن ان نرسم الطمر كما نرسم البرد . بل ان الجمال الانساني لا يقوم بغير المفارقات بل من منا لم يشعر في بعض أيامه بحزن مجهول قد اكتنف روحه وقلبه وحملها اليأس والجزع .

ولقد تأثرت آداب الأمم جميعاً بهذه الظاهرة الروحية وانتهى التشاؤم بالطرب اليوناني الى فلسفة اغتنام وهي الفلسفة العابثة التي عب فيها شعراء شرقيون عديدون أيضاً وفي مقدمتهم الشاعر الفارسي المشهور (عمر الخيام) .

لاجرم ان المعري قد أحب الحياة والانسانية حباً جماً فخرج يطوف الآفاق وبوده لو أن يطول السهى براحتيه حتى اذا اكتوى بنار التجربة وزاده فقد أمه مدبرة أمره وهو المستطيع بغيره حزناً وألماً انقلب الى ذويه متوحداً متقللاً لا فراراً من المجتمع لذاته بل عزوفاً عن مخزياته وانزوى في مدرسته المتواضعة في (معرة النعمان) منقطعاً الى التأليف والتعليم ورياضة النفس والجسد مؤمناً بعد أن حلب الدهر أشطره ان النفس البشرية المجبولة على غير الخير لا تحصل عليه الا بما استن لنفسه وبما توجه اليه من فلسفة صارمة :

فأكره على الخير مجبولة على غيره في علان وسر
فلم يجعل التبر حلي الفتاة حتى أهين وحتى كسر

أجل . في هذه الفلسفة الصارمة الحازمة وجد أخيراً أبو العلاء اطمئنان نفسه وراحة ضميره ومستقر طموحه وكأني به وقد ابتدأ ايجابياً جد ايجابي يرتد به الطموح الى (السلبية — الايجابية) لا توكيداً بكينونته فحسب بل ليعبر عنها ايضاً باسلوب جديد يطالع العالم بألمع آثاره وأروع أشعاره .

وفي الحق اذا كان الأدب العالمي مديناً الى كرمة الخيام المتوددة المغردة

تنفحه بالرباعيات فهو مدين الى مدرسة المعري المتوحدة المتهجدة تنفحه باللزوميات والفصول والغايات وغيرها من الآيات البينات .

ولقد أفاد أسلوب أبي العلاء من مدرسته الجديدة ونزعتها الفلسفية الصارمة فكانت هي هو بكل ما اليها من ألوان وأجواء وظلال وأضواء .

* * *

وبعدُ . فليس المعري في تشاؤمه (السلبي — الايجابي) الا علماً من أعلام النقد نقد الحياة وهدم الطغاة بأبلغ ما تستوعب الصيغ وهو بأسلوبه الحائر او الساخر أو الثائر المنبثق عن ثورة وجدانه محمولاً على بيانه ليهز الضمير الانساني هزا . ولا غرو بعد ذلك ان يتأثر بأسلوبه أدب المشرق والمغرب . فقد أصبح معلوماً لدى الباحثين في الأدب المقارن ان الشاعر الفارسي (عمر الخيام) الذي أبهج التشاؤم بالاغتنام والحب والمدام قد أفاد في رباعياته من أسلوب المعري واقتبس كثيراً من معانيه الشعرية الفلسفية على ما بين الشاعرين من فارق في الوسيلة هذا الى مدام وذاك الى صيام .

ومثل هذا يصح أن يقال عن تأثر (دانتي) الشاعر اللاتيني في (جحيمه) بأسلوب رسالة الغفران أيضاً مما اجتزيءُ بالاشارة اليه .

ويبدو أن عرب الأندلس خاصة كانوا من المهتمين بأسلوب المعري وفي النسج على منواله كما يستدل من معارضاتهم لملقى السبيل . ولغيرها من آثار أبي العلاء فقد عارض هذه الرسالة ممن علمنا الحافظ الربيع الكلاعي الأندلسي المتوفى سنة ٦٣٤ هـ والكاتب الشهير (أبو عبد الله) محمد بن ابي الخصال وزير يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين .

ولا حاجة بعد ذلك الى التنويه بما كان لعرب المشرق من اهتمام أوفى بآثار المعري وآرائه فقد سارت بحديث ذلك الركبان وعلمه الناس من قاص ودان .

***

إلى هنا . وأنهي حديثي عن أسلوب شاعرنا وناثرنا العظيم لأعرض على

حضراتكم صورة تذكارية ناطقة من صور شيخوخته الفانية وقد وقف كالشمس الغاربة ملوحاً للماضي البعيد من شاطئ النهاية محمولاً على هذه الأبيات :

سقياً لأيام الشبـاب وما حسرت مطيّتيا
أيام آمل أن أمسّ الفرقدين براحتيـا
وأفيض إحساني على جاريّ ثم وجارتيـا
فالآن تعجز همـتي عمـا ينـال بخطوتيا
أوصى ابنتيه لبيد الماضي ولا أوصـي ابنتيـا
لست المفاخر في الرجال بعمـــــتيّ وخالتيـا
لكن أقر بأنـني ضرع أمارس دارتيـا
والله يرحـمني إذا أودعت أضيق ساحتيـا
لا تجعلن حالي إذا غيبت أبأس حالتيـا

محمد الشريقي